

إلا من أجل عقيدة كانت ما تزال طريقة الغرس في نفسه، وأنه لم يمتشق في شيخوخته سفه العاصف المتأجج المرهوب المحبوب إلا من تلك العقيدة، وقد توطنت في نفسه وامتدت واستمكنت، فإذا هي روحه الذي يتنفس ودمه الذي يجري.

وماذا تنتظر من شيخ نديم كهولته عقيدة نيرة، وتصبره على العذاب الشديد الغليظ فيها. وهي طرية الغرس لما تنتشر عروقها في أنسجته وشرائينه، غير أن تنتضيه ذلك السيف العاصف. وقد هبطت جذورها إلى أخصيه واشتبكت خيوطها في مشاشه، وفشت منه في كل غدة، وفي كل حجرة، حتى استحال دمه كله إيماناً وإخلاصاً، وحقاً من الحق الصريح.

لم يكن الكهل الشاب يتلقي حز الحديد، ولفح النار، وضغط الماء، بلحمه ودمه، وإنما كان يتلقاه بعقيدته وإيمانه، فإذا لقي جلده: هذا الثوب، من العذاب الشديد الغليظ أذى وتبريحا، فقد كانت نفسه، تلك الروح، تجد من التضحية لذة وترويحاً.

ثم لم يكن الشيخ الفتى يصارع عدوه بساعده وعضله، وإنما كان يصارعه بدينه ومبدئه، فليس هو - في واقعة - جارحة تكل، ولا سيفاً يفل، ولا ضربة تنبو، وإنما هو حقيقة تنصب على زيفها انصباب بالنور على الضلام يمزقه تمزيقاً، ويمحوه محواً.

فأى عجب بعد هذا في أن يصبر كهل على فتنة، أو يثبت على امتحان، مهما غلا هذا أو تكل في قسوة، أو بالغاً فيها؟ وأي عجب بعده في أن تشب شيخوخة هذا الكهل وقد تبين لها الحق، ووضح لها الطريق؟ وما حاجة الكهل والشيخ معاً إلى أجساد الشبان، وعضلات الاحداث مما تنتظره لصبر ممتحن أو إقدام مقدام؟ وما الفتوة؟ هل هي سن وميعة صبا؟ هل هي مرحلة معينة من مراحل العمر؟ الواقع أنها ليست كذلك، وإنما هي إيمان، يكبر حظك منها كلما كبر حظك منه، هي حماسة إيمان تلبس إهاب الكهول والشيخوخة، كما تلبس إهاب الشبان الاحداث، فتنشئ في هؤلاء وهؤلاء ما ينشئ الشباب الجلد القوى الصبور،